المحاضرة الثالثة: دور الخلفاء في ازدهار الحركة الأدبية والعلمية

مدخل:

شهدت الحركة العلمية في العصر العباسي ازدهارا كبيرا في شتى الميادين، يعود سببه إلى ظهور الكثير من العلماء والمفكرين في مختلف العلوم وانتشار حركة الترجمة واهتمام الخلفاء بها، إضافة إلى التوسع في التعليم العام وبناء المدارس والمؤسسات الثقافية مثل دور العلم والربط فضلا عن المساجد. ومن العلماء البارزين في اللغة والأدب والشعر الخليل بن أحمد الفراهيدي في علم النحو والعروض (نظم الشعر) والجاحظ في الأدب والبلاغة والأصمعي في الأدب واللغة.

كما تميز الإمام بن ثابت الكوفي المعروف بابي حنيفة والقاضي أبي يوسف في علم الفقه.

أما شعراء هذا العصر فمن أبرزهم أبو العتاهية وعباس بن الأحنف وأبو تمام الطائي والبحتري والمتنبي والشريف الرضي وأبو العلاء المعري وأبو نواس.

ومن المؤرخين البارزين محمد بن جرير الطبري واليعقوبي وبرز في الجغرافية المسعودي.

أما في الرياضيات والفيزياء فقد برز أبو الحسن بن الهيثم وفي علم الجبر محمد بن موسى الخوارزمي وفي الكيمياء جابر بن حيان وغيرهم كثيرون ممن ترجمت مؤلفاتهم إلى اللغات الأوربية واستفيد منها في النهضة الأوربية الحديثة.

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بالعلم والعلماء فقربوهم وشجعوهم فكان لذلك أثره الكبير على الرقي الفكري في هذا العصر، وأبرزهم الخليفة هارون الرشيد الذي اشتهر بتقريبه العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والكتاب وتشجيعهم على البحث والتأليف وتوفير كل ما يحتاجون إليه في بحوثهم ودراساتهم.

1) مظاهر ازدهار الحركة العلمية:

- أصبحت المساجد ساحات علمية ومجالس للدرس و المناظرة و التثقيف.

- امتزاج الثقافة العربية بثقافات الأمم السابقة.

- ترجمة كتب العلوم المختلفة إلى العربية و الإضافة إليها.

- ظهور علم الكلام للرد على الملاحدة و الزنادقة.

- ازدهار الثقافة الدينية تفسير القران جمع الأحاديث نشأة الفقه.

- ازدهار العلوم اللغوية بظهور مذهب الكوفيين و البصريين في دراسات النحوية.

- الاهتمام بالتأليف البلاغي و النقدي ورواية الشعر والنوادي و الأخبار.

- ظهور مذهب المحدثين في الشعر وتعدد اتجاهات الشعراء و أغراضهم.

2- دور الخلفاء في ازدهار الحركة الأدبية :

للخلفاء العباسيين دور كبير في ازدهار الحركة العلمية والأدبية في العصر العباسي لعل أبرزهم:

أ- الخليفة أبو جعفر المنصور(136- 158 ه) : و قد عني بترجمة الكتب إلى العربية سواء من اليونانية أو الفارسية، و في تلك المرحلة نقل حنين بن إسحاق بعض كتب ابقراط و جالينوس في الطب و نقل ابن المقفع كتاب "كليلة و دمنة" من الفهلوية.

ب- هارون الرشيد (170 -194 ه): عندما كثر أعداد العلماء في بغداد انشأ لهم دار الحكمة لتكون بمثابة أكاديمية علمية يجتمع في رحابها المعلمون و المتعلمون و حرص على تزويدها بالكتب التي نقلت من آسيا الصغرى و القسطنطينية.

ج- المأمون (198-218 ه) : ازداد اهتماما ببيت الحكمة، فوسع من نشاطها و ضاعف العطاء للمترجمين و قام بإرسال البعوث إلى القسطنطينية لاستحضار ما يمكن الحصول عليه من مؤلفات يونانية في شتى ألوان المعرفة، فاخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر، و ابن البطريق فاخذوا مما اختاروا و قد ذكر ابن النديم انه كان بين المأمون و إمبراطور القسطنطينية مراسلات بهذا الشأن.

ومن علماء الأمة الذين عاشوا في تلك الفترة وبالأخص في العلوم الشرعية :أئمة المذاهب الإسلامية الأربعة أبو حنيفة، و الإمام مالك، الشافعي، وأحمد بن حنبل،وفي علوم اللغة العربية، هناك مدرستان مشهورتان: المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية، فمن البصريين

عيسى بن عمر الثقفي و أبو عمرو بن العلاء ،ومن الكوفيين : الكسائي و الفراء، محمد بن عمر الواقدي وغيرهم .

أما في الأدب فهم كثيرون : ففي الشعر: أبو العتاهية صاحب الزهديات، و أبو نواس صاحب الخمريات، و أبو تمام صاحب الحماسة، و تلميذه البحتري، و المتنبي، و شاعر الفلاسفة أبو العلاء المعري....وفي النثر : ابن المقفع صاحب كليلة و دمنة و الجاحظ صاحب الحيوان و البخلاء والبيان والتبيين و بديع الزمان الهمذاني سيد المقامات، وتلميذه الحريري و سهل بن هارون و غيرهم .

في الرياضيات :و نظرا للتطور المبهر لهذا المجال فلابد من عباقرة قادوا هذا الازدهار أمثال أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي و كذا أبناء شاكر.

في الطب : أبو بكر الرازي جالينوس العرب ،ابن النفيس، ابن سينا ابن البيطار، أبو القاسم الزهراوي، الطبري،ابن زهر، ابن الوافد، الإدريسي، البغدادي و غيرهم ....
و في الفيزياء و الفلك : ابن الهيثم، الخازني،والخوارزمي والكندي البغدادي وغيرهم.

3- الأسباب التي أدت إلى نهضة الأدب في العصر العباسي الأول :

على الرغم من الانحلال السياسي الذي أصاب الدولة العباسية في العصر العباسي الثاني إلا أن الأدب شعرا ونثرا ظل مزدهرا وذلك لوجود عدة عوامل منها:

- حرص الخلفاء على نقل العلوم عن الحضارات الأخرى كالفارسية والهندية واليونانية.

- تشجيع الترجمة ودراسة هذه الآثار وتحليلها و الإضافة عليها، ولم يكن العرب مجرد ناقلين.

- ازدهار الثقافة الدينية والاهتمام بالتفسير وعلوم الحديث.

- ازدهار العلوم اللغوية وظهور مدرستي البصرة والكوفة في النحو والاهتمام بالنقد الأدبي
- ظهور تيار جديد في الشعر العربي، يسمى مذهب المحدثين، أحدث نوعاً من التجديد في منهج بناء القصيدة العربية، وأكثر من البديع.

أولا ازدهار الشعر في العصر العباسي:

كما هو معلوم فإن العصر العباسي عصر الترف والبذخ والتأنق، فقد رقَّت فيه طباع الشعراء و ارتقَت أذواقهم بالمخالَطَة، فظهر ذلك في أشعارهم، فعمدوا إلى وصف الخمر و مجالس الأنس وحدائق القصور .ودَرَّس علماء المسلمين الشعر، فحَصَر الخليل بن أحمد أوزان الشعر في خمسة عشر بحراً، ثم زاد عليها الأخفش بحراً واحداً وسمّاه الخبَب أو المتدارك، فأصبحت ستة عشر بحرا، و هو ما عُرِف بعلم العروض وموسيقى الشعر .

كما عرف العصر العباسي نشأة الندوات والمجالس الأدبية، وكانت المساجلات الشعرية، والمناظرات الدينية والمناقشات الأدبية تَجري في معظم الأحيان في حضرة الخلفاء العباسيين الذين كان بعضهم شعراء ومتذوقين للشعر، فأغدَقوا الأموال على الشعراء، فتزاحموا على أبوابهم .

وقد نبغ عدد كبير من الشعراء في العصر العباسي، من أشهرهم " أبو نواس " و هو ممن أذاع القول في الخمر والغزل والصيد، و" أبو العتاهية " الذي برَع في فنون الشعر واشتهر بالزهد الرقيق والحكمة والموعظة .و " أبو تمام "، الذي اشتهر بنزعته العقلية والفلسفية في الشعر و تلميذه " البحتري "، الذي ضُرب فيه المثل في براعته في الوصف ويُقال أن كلامه يجمع الجزالة والحلاوة والفصاحة والسلاسة، ويُقالُ عنه أيضاً:" أراد البحتري أن يشعر فغنى" وكان شعره كتابة معقودَة بالقوافي .

ولا يفوتنا أن نذكر " ابن الرومي " الذي اشتهر برثائه وهجائه، ابن خلِّكان يقول عنه:" إنه يغوص بحثاً عن المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها، ويُبرزها في أحسن صورة" .

ولما استلم زمام الأمر العنصر العَجَمي في الدولة العباسية، ضعف أمر الشعر، حتى إذا قامَت دولة بني حمدان وهم عربٌ، عاد الشعر إلى مكانته و رونقه، ورعاه سيف الدولة الحمداني، وقد كان شاعراً وأديباً، وكان يرى أن إعطاء الشعراء من فروض الأمراء .

واشتهر في عصره عدد كبير من الشعراء كأبي فراس الحمداني، و أبي الطيب المتنبي الذي كان نادرة الفلك وواسطة عقَد الدهر في صناعة الشعر، ثم هو شاعر سيف الدولة

الذي رفع من قدره وألقى عليه شعاع سعادته حتى سار ذكره مسير الشمس و القمر، وسافر كلامه في البدو والحضر، فهو الذي قال :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي.. إذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ مُنشِدا

فسارَ به مَن لا يسيرُ مُشَمِّرا... وغـنّى بــه مَـن لا يُغَنّي مُـغَرّدا

مظاهر التجديد في الشعر العباسي من حيث الأغراض:

1- في المدح:

ظلت المثل الخلقيه في هذا العصر هي الموضوع الذي يطرقه الشعراء في المدح ، ويمدحون بها الخلفاء والوزراء والقادة وكل من يلعب دورا في تصريف شؤون الدولة . فخلق الشعراء من هذه الصفات صورا حيه في نفوس الممدوحين بما استنبطوه من معان دقيقه في الكرم والمروءة والشجاعة وشرف النفس وعلو الهمة..يسعفهم في ذلك عقول خصبة وأخيلة بارعة ،وأضاف الشعراء مثالية جديدة هي تقوى الله والحكم بالشريعة كما في قول مروان بن ابي حفصة في مدح المهدي:

أحيا أمير المؤمنين محمد... سنن النبي حرامها وحلالها

كذلك نجد أن قصائد المدح أحيانا تسجل الوقائع والأحداث والفتن والصراع داخل الدولة ,وصراعها مع الروم خارجها كما في قصيدة فتح عمورية لأبي تمام ..

لقد تركت أمير المؤمنين بها... للنار يوما ذليل الصخر والخشب.

2- في الهجاء:

لم تعد العصبيات أساس الهجاء في شعر هذا العصر ,وإنما اهتم الشاعر بسلب المهجو الايجابية والمثالية الخلقية،وإلصاق المثالب به .فكان الهجاء يأتي طعنا وتحقيرا ورميا بالقذارة والدنس والبخل والظلم.

3- في الفخر والحماسة:

لم يستطع بعض الشعراء أن يتخلصوا من الفخر القبلي كتعصب أبي نواس مثلا لمواليه بني سعد،وتعصب بشار للقيسيين .والجديد في شعر الفخر أن بعض الشعراء أخذوا يصدرون في فخرهم عن إحاسهم بالمروءة والأخلاق والقيم المثلى .وللحث على الجهاد وملاقاة الأعداء وفخر بالبطولات في المعارك للإثارة والحماسة.

4- في الرثاء:

شهد شعر الرثاء نشاطا خاصا حيث وجه اغلبه لرثاء من يموت من كبار رجال الدولة كالخلفاء والوزراء والقادة وركزوا على تمجيد البطولة والقوة في المرثي كرثاء أبي تمام لمحمد بن حميد الطوسي،وذلك لإضرام الحمية في النفوس واتجه الشعراء في رثائهم إلى الأصدقاء والأبناء والزوجات كرثاء ابن الرومي لابنه . و في رثاء ابن الرومي أيضا للبصرة فقد نهج نهجا اتبعه الشعراء خاصة شعراء الأندلس.

5- في الوصف..

كان الشعر في السابق غالبا ما ياتي في ثنايا القصائد ,وأصبح الوصف في هذا العصر فنا مستقلا بفعل الطبيعة الغنية بالجمال ،وإضافة إلى المظاهر الحضارية التي عنى بوصفها الشعراء كالمطر والسحب والحدائق والقصور والبرك والطبيعة في فصل الربيع ووصفوا المعارك الحربية خاصة مع الروم.

6- في الغزل:

الغزل في هذا العصر كان ينبع من عاطفة صادقة ,لذلك تميز بالرقة والتلطف وسار في اتجاهين : الاتجاه الأول وهوا تجاه الغزل العفيف مثل الذي نجده في غزل العباس بن الأحنف باحتشامه.وأما الاتجاه الثاني فكان من أسبابه: انتشار الجواري والقيان ،فجاء غزلا صريحا حتى وصل إلى درجة المجون على يد بشار بن برد وذلك لانغماس الشعراء في أنواع الترف والنعيم..

7- في العتاب والاعتذار:

يكون بين الأصدقاء وبين الحكام والولاة يعبر عن عواطفهم ويدل على رهافة الحس وخصب الذهن وأظهر الشعراء فيه قدراتهم العقلية وقوة حججهم ومنطقهم كقول ابن الرومي يعاتب صديقه..

يا أخي أين عهد ذاك الإخاء ... أين ما كان بيننا من صفاء؟؟

ثانيا ازدهار النثر في العصر العباسي :

خطا النثر العباسي خطوات كبرى حتى واكب نهضة العصر وأصبح قادراً على استيعاب المظاهر العلمية والفلسفية والفنية، كما أن الموضوعات النثرية تنوعت فشملت مختلف مناحي الحياة .. فالكتابة الفنية توزعت على ديوان الرسائل والتوقيعات وغيرها.. وكان المسئولون يختارون خيرة الكتاب لغة وبلاغة وعلماً لتسلم الدواوين،ولاسيما ديوان الرسائل الذي كان يقتضي أكثر من غيره اتقان البلاغة والتفنن، و مستوى رفيع من الثقافة فضلاً عن ذلك النثر الفني القصص و المقامات و النقد الأدبي، و النوادر، و الأمثال و الحكم، و التدوين، والرحلات، و التاريخ، و العلوم. وظهرت الرسائل الأدبية التي تضمنت الحكم و جوامع الكلم و الأمثال والفكاهات و كانت موضوعات الرسائل تتراوح بين الأخبارو الإخوانيات، والاعتذار وغير ذلك وراجت الرسائل الطويلة في العصر العباسي فتناولت السياسة والأخلاق والاجتماع، كرسالة الصحابة لابن المقفع، ورسالة القيان ورسالة التربيع والتدوير للجاحظ، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

وعظم شأن القصص في العصر العباسي، فاتسع نطاقه وأصبح مادة أدبية غزيرة، وتنوعت المؤلفات القصصية فأقبل الناس على مطالعتها وتناقلها ومنها ما اهتم بالحقل الديني ككتاب قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس لأبي إسحاق النيسابوري، وقصص الأنبياء المنسوب للكسائي،والقصص القرآني كقصة يوسف الصديق، وقصة أهل الكهف، وقصة الإسراء والمعراج، ومنها القصص الاجتماعية والغرامية والبطولية والأخبار ككتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، وقصص العذريين،وسيرة عنترة و غيرها... ومنها القصص التاريخية التي تناولت سير الخلفاء والملوك والأمراء .

كما عرف العصر العباسي القصص الدخيلة المنقولة، نذكر منها كليلة ودمنة، قصص السندباد البحري، وألف ليلة وليلة، وهي قصص عن عوالم عجائبية وغرائبية وأكثره خيالي خرافي يدور بعضه على ألسنة الحيوان.

وإلى جانب القصة ازدهر أدب الأقصوصة، وكتاب البخلاء للجاحظ خير مثال على هذا النوع من الأدب. وقد امتاز الأدب القصصي العباسي بدقة الوصف والتصوير وبراعة الحوار، والقدرة على استنباط الحقائق وتصوير مرافق الحياة، يمتزج بعالم العجائب والغرائب، والكشف عن العقليات والعادات والتقاليد.

كما ظهر فن المقامة، الذي وضعه بديع الزمان الهمذاني، ولقي كثيراً من الرواج في العصر العباسي وما بعده .. وهو سرد قصصي يتناول الأخلاق والعادات والأدب واللغة، ويمتاز أسلوبه بالسجع وإغراقه في الصناعة وكثرة الزخارف والمحسنات المتنوعة.. وفضلاً عما ذكرنا اهتم النثر العباسي بتدوين العلوم على أنواعها وهذه العلوم كانت إما عربية إسلامية كعلوم الشريعة والفقه و التفسير والحديث والقراءات والكلام والنحو والصرف والبيان وغير ذلك، وإما أجنبية التأثير كالمنطق والفلسفة والرياضيات والطب والكيمياء والفلك وعلم النبات والحيوان وغير ذلك. بهذا حاولنا أن نلقي نظرة على الأدب العباسي، شعره ونثره، وأن توضح أهم ما تناوله من موضوعات وما امتاز به من خصائص عامة.

للاطلاع والاستزادة أكثر ينظر:

1- موقع المنارة التعليمي على الشابكة
2- ابن الأثير : الكامل في التاريخ
3- ابن الجوزي :المنتظم في تاريخ الملوك والأمم
4- ابن خلدون: المقدمة
5- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
6- الأصفهاني :الأغاني
7- ابن عبد ربه الأندلسي:العقد الفريد